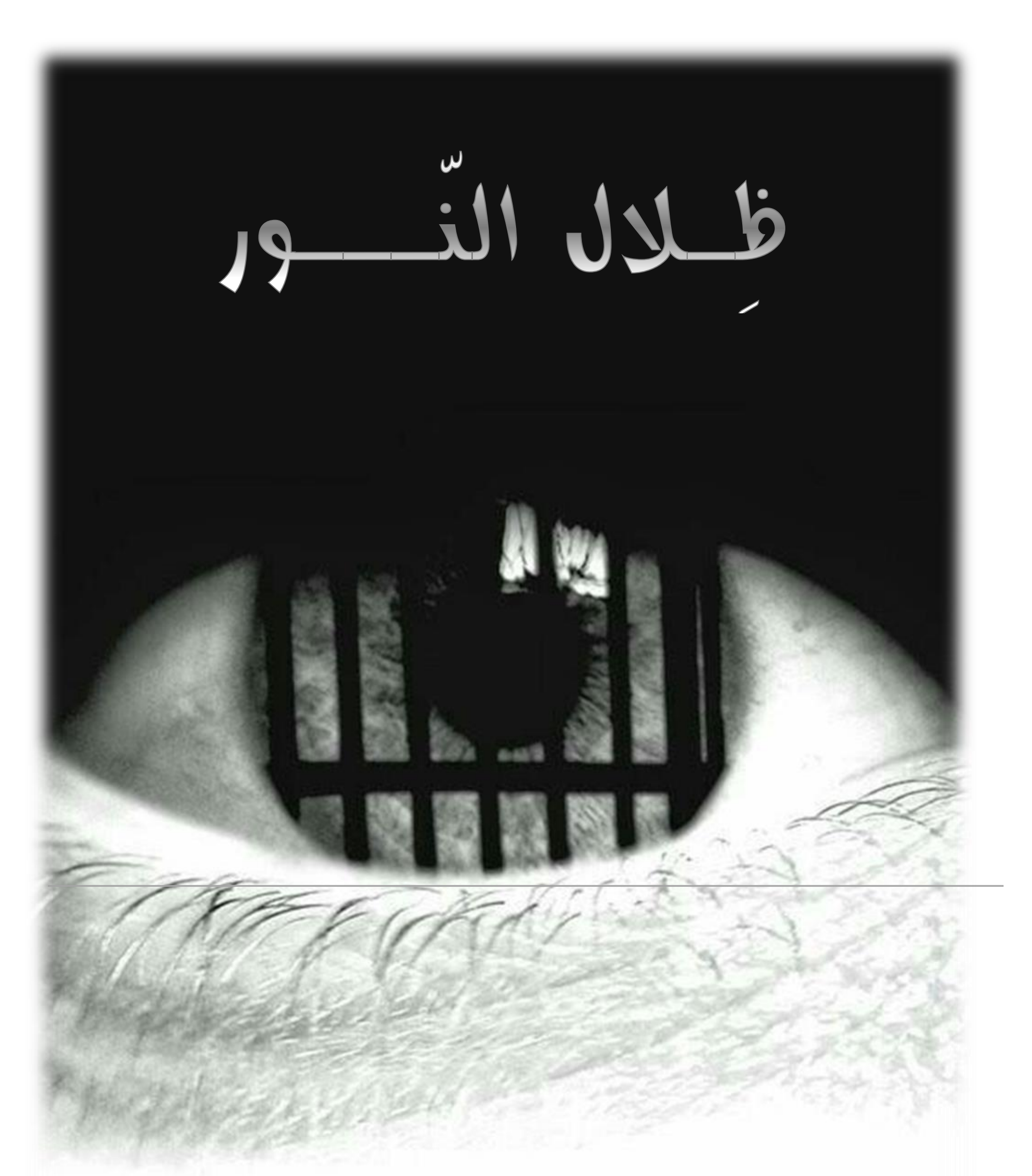
ظِـلال النّـــــور



بقلم عبد اللّه

سلام على الذين استنشقنا طيب عنبرهم بعدما أحرقنا أغصانهم اليابسة،

سلام على الذين أحرقوا حقوهم لتصير سمادا لأراضيانا من بعدهم،

الذين بنوا لنا بيوتا من أضلاعهم و شبَّكوا بين أصابعهم ليُسَقِّفوا لنا مستقبلا كانوا هم فيه الحلقة المفقودة.

أولئك الذين طعِمنا من أطباق أكُفِّهم المتقرِّحة و شرِبنا من سقاية جبينهم اللافحة

سلام عليكم أينما حللتم

سلام عليكم حتى نلقاكم ..

هذه كلماتٌ كانت تعيث عبثا في فجوات جمجمتي كشبح متمرّد على ضمير مُستميت داخل أقفاص صدري، و ما هذه الطقطقات اليسيرة إلّا محاولة منّي أن أقيِّد هذا الشبح المارد بمكنوناتٍ و أسرارٍ لا يفهمها إلا من عايش هذه الأحداث معاينة أو خبرا.. و إنّي قد نسجت بيتا بين دفتّي هذه الصفحات بخيوط العنكبوت على أمل أن يراها المتطلّع عليها حريرا حتى إذا خاطَها بإبرة المُعتبِر كانت حُلّة بيضاء تُهدى للأزِقّة و الأفراح، لا كفنا يُتصدّق به للشهيد و الأتراح.

إذا فككتم السرّ و تتبّعتم منابع السيل إيّاكم أن تكونوا عونا في تحرير الجِنيّ المحبوس في قُمقُم الحروف، و لو أغراكم بحلاوة القطوف و لين الكفوف ..

عبد الله .

جلس الأب صالح في فراشه مُمدِّدا ساقيه، مُسنِدا ظهره إلى الجدار و هو يُخفي ابتسامته الحانية خلف ظلال شفتيه اللّتين أضناهما المرض،بدا بوجه شاحبٍ و أطراف كقضبان سَجنت روحه بقيود الآلام و الأسقام، و المِحن رسمت خطوطا على جبهته، هي ذات الجبهة التي ما فتئت تصنع حبّات العرق، مُخلِّفةً أخاديدًا لسيول العمل الدّؤوب؛ تلك كانت ملامحه التي نُقشت بطابعة الزمن، و بالأمس القريب كانت عنوانا للنّشاط المُفعَم و البشاشة المنتشية فصارت اليوم كمنديل ورقي مجعّد تتقاذفه رياح العلل بين أرصفة الوحشة و ردهات المرض، تلك الأيادي التي اتسمت بقبضة الحزم و سبّابة الحسم و ندبات الكسب الحلال صارت عظاما يكسوها دِثار الوهن، و كأن حرف الحاء تلاشى بفعل العواصف من لافتة على باب سِيرَته كُتب عليها "أحلام".

دنا منه ابنه في وجل يسأله عن حاله، فالتفت نحوه بوجه مهزوز و أشار له أن يجلس بيد مرتجفة ، قائلا بصوت خافت، كأن زجاجا مهشّما ملأ حلقه المبحوح :" أي بنيّ .. الوحدة تصيّرُنا إلى متاهات و تحتّم علينا خيارات، حينها لا نعرف ما نريد فعله" ثم أردف قائلا بتوجّس :" الحياة صعبة حتى بالنسبة للأفضل بيننا .. فلا تعترض على الألم لأنه سيكون هناك الكثير من الألم، و الجزء الأسوء أن تنسى دواعيه، ثم تتذكر ...ثم تنسى ثم تتذكر ، لكن مع كل هذا عليك الإستقاظ باكرا و تحضير كوب القهوة بنفسك فأنت أدرى بتركيزها و سكّرها حتى تشربها ساخنة قبل أن تبرد، و لا يكدِّر صباحك أحد؛ العالم باقٍ حولك لن يختفي أو يتغير فلا تنسى تواجده، و النهاية تنتظرك سواء كنت مُقبلا عليها بصدرك أو بالقهقرة، النهاية ستعانقك بشوقِ أمّ لابنها العائد من الحرب، أو بقبضة مِصيَدة سال لعاب انتظارها على حديدٍ صَدِئ".

أطرق الابن برأسه في حسرة و الكلمات قد انتحرت عند شفتيه و صارت لكمات توجّع منها قلبه، و قد أيقن لحظتها أنه كان يعيش بعيدا عنه رغم أنه لم يفارقه طيلة ثلاثين سنة عجاف، و ياليته كان يطعِم الطير من رأسه على أن يعصر حقل الفجوة حنظلا؛ كان يراه كإلكترون وحيد في مدار مهجور كذرّة الهيدروجين، يستجدي عواطف الرّوابط، بل عواصف الذرّات المجاورة، فما برح أن جلس الإبن بجنب أبيه ليقوّي رابطته به حتى رآه يبتعد عاليا .. عاليا .. كبالون نُفِخ بالهيليوم و تملّص من يد طفل وسط صخب و ضوضاء ..

هناك بعيدا عن الزحام و الضجيج، بعيدا عن الأشداق المملوءة بالطعام و الأفواه متحلِّقة الشفاه بين متحير مبهوت و لائم لئيم .. تدحرج الولد الصّالح (صالح) من حياة كانت روحه مخزونة عند بارئها إلى كنف حياة صارت شَفْعا لجسد عليل، تدحرَج تدحرُج الثمرة الساقطة من غصن الشّجر، بعدما كانت زهرة تستقطب النّحل برحيقها و الفَراش برقّتها حتى صارت ثمرة مُخيَّرة بين الذّبول البطيء و الأَكل الشّرِه، و أحلا الخيارين رهن ريّاح الصيف أو الشتاء.

جاء صالح في ترتيب بين أخواته كلؤلؤة تخلّلت خرزات المسبحة تعلن عن العدد الرّباعي و تُنذِر المسبّح باستئناف ذكر موالي، فسماه أبوه صالحا تيمّنا بالصّلاح و ديمومة العُمر بعدما كان يَدفن إخوته الخِداج و الرُّضع الصغار، أو ائتناسا بنبي الله صالح عليه السلام حينما تنكّر له قومه و كذبوا رسالته و قالوا يا صالح ايتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ..

كان أبوه غريبا بين أصهاره، حديث عهد في أهل بلدته، يعمل في معمل لحياكة النّسيج في زمن كان المستدمِر يجزُّ الخراف في عزّ الشتاء، و كل همِّهِ أن يرى ابنه يُشار إليه ببنان العلم السامي و الخُلق العالي بين أقرانه؛ ذات يوم سوّلت نفسُ صالح أن يتخلّف عن المدرسة ليوم واحدِ مُوائِيا أبناء حيّه، فغاب عن مقعده يومها موهِما من في البيت أنه كان في المدرسة، وبينما هو سالك لطريق العودة وجد أباه عند عتبة الباب ينتظره منهكا من يوم عملٍ شاق؛ سأله الأب سؤال المتثبّت لا المستفسرٍ قائلا : أين كنت يا ولدي ؟! فأجابه صالح و آثار الحلويات بادية على شفتيه : كنا في المدرسة ..

- و ماذا درست اليوم !؟

فأخذ الإبن يتلعثم و يميل رأسه إلى أعلى شقه اليمين، كأنه يستنسخ مشهدا من ذاكرته .. و هو كذلك حتى تلقّى صفعة على وجهه أخرجته من هذيانه كصعقة أحيَت فيه نبضات قلبه بشحنة عالية الحكمة عصيّة النسيان لا تأتي بالمجان ..

- "الحياة لن ترحم المتأخّر، و ليس كل مُستدرِك محظوظ، فعليك أن تواجه ملذّاتك و لهوك حتى لا تواجه نفسك في آخر درب حياتك" ، الأب ناصحا.

قد قسى عليه أباه في أوج لحظات انصرافه حتّى يعلّمه درسا في الإنضباط و الدوام على النهج القويم، ربّما كانت نصيحته ثقيلة و ضخمة على وعاء قلب لم يتعدّى السنة الثامنة، و لكنها لازمته كندبة شرخت جلده فاختلط بدمه و مورثات شخصيته.

مات أبوه بعد سنوات صارع فيها المرض و أعيى من يُداويه لشحّ الأدوية و أدنى الوسائل الصحيّة تحت وطأة المستدمر، تاركا أبناءه الخمسة لأمّ اشتغلت في العير و النّكير، و زاحمت لفحات الشمس في كبد عملها، و زمهرير الشتاء حتى تعود في آخر اليوم بخبز يسدّ رمق جوع أيتامها ، أو حفنة قمح علّها تصنع منه طعاما معجونا بعرق الساعات الطّوال..

لم يجد صالح من يسدد خطواته وفق خطوط طلاء الطريق المعبّد أو من يستعين بحكمته و تجربته و هو يستنشق هواء مراهقته ممزوجا برجيع الآفات و مخلفات مخططات فرنسا الإستدمارية، فكان أطفال الوطن مُجبَرون - قانونا و دستورا - على ترك مقاعد الدّراسة في طورها الأوّل، محرومون من المواصلة حتى يملؤوا شوارع أحياء المعمّرين بماسحي الأحذية و حمّالي الأغراض و المشتريات مقابل فرنكات معدودة. فبعد أن تحصّل صالح على شهادة الدراسة الإبتدائية بامتياز أُجبر قسرا على ترك الدراسة و كان سندُه الوحيد بعد وفاة أبيه: عَمُّه (عبد القادر) الذي تفانى في تنفيد وصيّة أخيه - رحمه الله - و تفنيد عقبات الأيام بقدر ما أوتي من وقت و جهد، محاولا التوفيق بين دعم ابن أخيه اليتيم و قوام أسرته البعيدة.

في أحد ليالي الشتاء القارصة، و على وقع صقيع جمّد وجه البِركات و ريّاح تجلد النوافذ بسياط موجاتها محدثة هزّات ارتجاجية في البيت؛ كانت الأم جالسة مع أيتامها المحلِّقين على مِجمر فخاري صغير ممّدي أياديهم الصغيرة كيرقات تداعب ضوء التنور تارة ثم تُذهب لفحته بحك بعضها ببعض، يتحدثون فيما بينهم بهمسات بريئة و آذانهم تجسّ أيّ حركة أو صوت، و الخوف ذلك الضيف الجاثم على صدورهم الصغيرة كجاثوم بمخالب أبرد من الحديد يأبى و لو لحظة أن يفارقهم؛ كانت ليلة طويلة و ليس لهم - بعد الله حافظا - إلّا بابا مهترئ تتشابك أخشابه كأصابع الأيدي حينما تخشى الإنفلات.

كانت لحظات قاسية لعب فيها الرعب و البرد الدور البطل قبل أن ترهف أسماعهم إلى طرقات الباب مصحوبة بصوت خافت : " افتح .. افتح" . قام على إثرها الإبن صالح وأمّه تترجّاه آمرة أن لا يفتح .. و لكن الطّرق لم يكفّ يتواصل حتى كاد يقتلع قلوب الصغار ، دلف صالح نحو الباب في حذر سائلا:

- من بالباب ؟
- افتح فالأمر في بالغ الأهمية ..هيا افتح.
- من أنت .. فنحن بالكاد نأكل ، ليس عندنا شيء.
- افتح ، أرجوك أنا من الجبهة و دوريات الشرطة تلاحقني ..

ما أن سمع صالح "الجبهة" حتى تزايدت فيه النبضات الثورية و احتقن في وجهه دم الوطنية بنظرة حادّة، فتح الباب بهدوء و هو يزيح مزلاجه الصّدئ ، قائلا له: ادخل، ثم أخرج رأسه بترقب حذِر يمنة و يسرة ..

قال له الرجل: أرجو أن تحتفظ بهذه الرسائل و أن تعطيها للعمّ محمود بائع الخضار في الحي القديم بعد غد .. ليس غدا و إنما بعد غد، تأكد أن لا يراك أحد هذه الرسائل لو تقع في أيدي المستعمر سيذهب جراءها أناس قد وهبوا أنفسهم لأجل هذه القضية، كن رجلا أيّها الغلام! ..

ثم انصرف مباشرة من غير أن يطلب شيئا آخر، سألته أمه في توجس عمّا وراء هذا الرجل، فقال لها : لا تقلقي يا أمّي، رجل أخطأ الباب فهو يبحث عن فلان جارنا .. و لكن عاطفة الأم لا تخطئ قراءة ملامح ولدها الذي لم يتعدى الثالثة عشر. و كانت هذه أولى مهمات صالح في توصيل الرسائل من و إلى أفراد جبهة التحرير الوطني ..

صائفة جويلية 1962، في أيام اتّسمت بزرقة سمائها و أفق تظهر خيوطه على شمس تسدل حزم أشعتها بحُزَم مُخضّبة بدماء شهداء في الجبال و البراري، و على أزقة الشوارع و الدروب الضيقة، و أنفاس الشعب الجزائري تخترق صدورهم الملئى بحكايات التعسّف و الإضطهاد الذي مارستها

الحكومة الفرنسية فيهم، و عيونهم المضرجة بالدموع و الحزن الذي رسم خطوطا في ملامحهم العابسة حتى صارت تجاعيد ، و آذان العشرات قد شُدَّت كما النّحل في خلية البيت الواحد إلى شهد المذياع؛ و الكل يترقب نتيجة التصويت الذي أسفر عن بيان معاهدة إيفيان.

تحرّر الشعب الجزائري أخيرا .. تحرّر جيل عاش أجداد آبائهم معركة سيدي فرج و هم يذودون عن الجزائر في أولى حملات الإنزال الفرنسية، خرج الشعب في الأرصفة و الشوارع مبتهجون بهواء الحرية و كأنهم ولدوا مرة أخرى .. البيوت أغلقت و المحلات أوصدت و السيارات المحملة بأفراد الجبهة تجوب الشوارع في ضوضاء بطولية تحيا الجزائر .. تحيا الجزائر ..

قرر صالح أن يلتحق بصفوف الجيش الوطني الشعبي حتى يُشبع وطنيته بخدمة وطنه في الخطوط الأمامية، غير أن روحه انشطرت إلى جزئين ، جزء أبقاه في حِجر أمّه الموجوعة على فقده، و الآخر رافقه في دربه فهو يعاتب فيه الولد الوحيد في أهله .. كان يتناول لقمته في الثكنة فتترائى له أمّه محفوفة بأخواته و هي تقلّب بصرها في السماء شاكية حالها وقلّة حيلتها؛ كان يتدثّر بالبزة العسكرية الدافئة و قلبه يرتجف بردا و ولعا على بيته، لم يستطع أن يقاوم شوق أمّه له كجيش اجتاح تفكيره بالأسلحة الثقيلة، في كل مرة يزورها عبراتها تصاحبه مجيئا أو ذهابا، و هي تقول له : "أنت وتد البيت و غيابك يعني سقوط سقفه في أوهن هزة تعتريه"، كيف لا و قد ضربت العنكبوت زوايا غرفته، و قلبه ينزف دما من ثقب لا يسدّه إلا يد أمّه الحانية بكمّادات نظراتها الراجفة و دموعها الرادفة .. لم يحتمل المسكين عيشة ألبست بيتهم الهزال و أسدلت ثوب الحداد على الطريق المؤدية إليه، فكان آخر عهده بالثكنة يوم جاء إلى بيته زائرا فوجد أمّه في وهن و مرض و هي تستعطف بقاءه بصوت تقرّحه الآهات: " يا بني أنا بحاجة إليك، يبقى ولدي في مرمى نظري، و أزوّجك بأبهى عروسة و تقرَّ عيني بأولادك .. يا ولدي لا أدري متى يحين أجلي فلا تحرمني من أمنيتي .."

نزلت عليه تلك الكلمات كشلّال غسل جسده من أدران التفكير المضني، و حرّر روحه من أصفاد اللمسات الأموية التي كانت تُأرجِحُها بسلاسل الزمن .. هي أمّه! نعم هي المرأة التي أبت أن تأتي لهم بزوج أمٍّ دخيل، و رضيت بقسمة من ربّ جليل، اكتنفت صغارها و احتوت حاجاتهم ببسمة الألم

و نسيم الصقيع و أهدت لأولادها زهرة شبابها و خضرة مراعيها، و جمعتهم في عشّ كفيها .. فهل بعد كل هذا يقبل ولدُها الوحيد موازنةً بها ؟

بعد سنوات قلائل اختيِرَت له زوجة من حيّه، و من معارف أهله و مع كل هذه المسوغات و بريق الأحاديث كان قرانه كمن يُقتاد إلى قفص مطلي بالأصفر يظنه الرائي فيه الرحمة و هو من قِبَله العذاب، كورقة تهاوت من شجرة الحكمة في خريف الحياة فصارت في حسبان الناس زورقا فهي تلامس في تماسٍّ وجه السيل الهادئ، يجذبه تياره في لطافة إلى شلال وعر، يفصل بين الماء و الهواء، و يقصم الصخور في صراخ و صليل .. و تستمر الحياة بموجاتها الإهتزازية بين العقدة و المغزل و تجري الرياح بما تشتيه السفن مرّة و بما يكسر دقلها و يخرِم شِراعها مرّات، حتى امتد المد و غاب الجزر و كأن شاطئ الإستجمام صار محظ سراب حتى إذا مدّ يده لم يجده شيئا، توالت عليه السّنون و بحر المدلهمّات صار محيطا فلا بوصلة التجارب أرشدته لما فيه الصواب و لا خريطة السير جنّبته العذاب و لا أفق أرذل الطريق أغراه بالثواب ..

تلك كانت محطات لقطار لم يعرف الكلل و لم تثنيه المحن حتى لمّا غيروا مساره أبى إلا المواصلة تحت ضوء القمر حتى ينهي المهمة التي لأجلها دوّى صفير الإنطلاق..

رحم الله أبي الأبيّ ..

كم أحنّ إليه حينما يغضب محاولا أن يملِك نفسه فيقبض على يده و يمنع سَيل الشتائم أن يفلت من سدّ أسنانه.

إلى ثرثرته و ضحكاته، و حكاياته التي تبدأ حينما تنتهي، إلى عباراته التي تحمل نَفَس الأصل و الأصالة؛ أحنّ إلى دموعه الممتزجة بالحشرجة فيتكلّم و لا يكاد يَبِين، لا يملك لها ردّا و لا يبغي لها مردّا ..

أحنّ إلى وقفته في صلاته و هو يقرأ القرآن بلكنته الفرنسية، إلى سجّادته ..إلى كتبه ..

حينما أرى السّواد أذكر معطفه، طاقيته.. حينما أستنشق عطره أذكر أيّاما جمعتني به ، مواقف ألّمت بي معه .. أحنّ حينما يرن هاتفي بعد منتصف الليل و يرسم على الشاشة اسمه فأقوم واثبا إليه، يقول لي : مجرّد كبسة زر خاطئة !

حينما يراني أصدقاؤه يترحمون عليه و يذكرون ابتسامته و سماحته،

كيف أنساه و لشوقي إليه أحببت الثرّى و أتربة اللّحود و نسيم المقابر .. في كلّ يوم شديد حرّه، محتّم قدَره، صعب نشره، طويل عمره، ثقيل سيره .. عميق جرحه، مقيم قرحه؛ صعب عليّ مسحه، عسير عليّ وداعه .. يا ليت عيني تتجمّل بمحيّاه و قسمات سرائِره، يا ليت ..

لم يبقى لي من ذلك الأب إلّا ذكريات تتقاذف من قلبي كَموج هائج بالأسف و الحسرة، و أجفان تنثر التنهدات بمروحة الأسى .. أو قبر على حدود المدينة مُعلّم بصخرة ليست كباقي الصخور .. رحمك الله يا فقيد الديّار .